المشكلات

٤ ـ اللغـــة العربية

للأســـتاذ محمد عرفه

لماذا أخفقنا فى تعليمها ؟ — كيف نعلمها ؟

فى الأمثال العربية — قتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضا عالمها — ومعنى ذلك أن من سلك أرضا وكان جاهلاً بطرقها ضل وهلك ، ومن سلك أرضاً وكان عالماً بمسالكها قطعها ونجا منها . وهذا لا يختص بالأرض والمسافر ، بل يعم كل من يزاول أمراً من الأمور ، فإن زاوله عالماً به تغلب عليه ، وإن زاوله عن جهل خاب فيه

للعلم سلطانه القاهر ، والمتسلح به متسلح بسلاح الظفر ، وللجهل عثراته الموبقة ، والمتسلح به متسلح بسلاح مفلول . إن الأمم التى تحل مشاكلها مستضيئة بنور العلم تنجح فيما تحاول ، وتتغلب على الصعاب التى تعترضها ، والأمم التى لا تستهدى العلم ولا تستشيره فى مشكلاتها ، لا تكاد تحل لها مشكلة

وما الفرق بين الأمم المتحضرة والأقوام الهمج ، إلا أن الأولى آمنت بالعلم وبسيطرته على الوجود ، فسعت للكشف والمعرفة ، وكلما علمت شيئاً استفادت منه فى حياتها ، وأن الثانية لا تؤمن هذا الإيمان بالعلم ، ولا تعترف له بهذه القدرة ، فهى تحل مشاكلها بما يأتيها به عفو الخاطر ، فتعثر دائماً ويلج بها العثار

وخير علاج ما يكون مبنياً على طبائع الأشياء ، فأول ما يبدأ به معرفة طبيعة الشىء ، ثم يعالج على حسب هذه الطبيعة وبنور هذه المعرفة

وعلى هذا فخير ما يعمل لحل مشكلة اللغة العربية أن تعرف طبيعتها ومن أى جنس هى ! وما خصائص هـذا الجنس ! وقد أدركت ذلك واقتنعت به ، ونريد أن نقنع به القراء

قضيتان إن آمنتم بهما سلمتم معنا بما نريد : إحداهما أن اللغة فى المتكلمين بهـا ملـكة . ثانيتهما أن الملكة لا تـكتسب إلا بالتـكرار لا بالقواعد فحسب

إذا استطعت أن أقيم الدليل على هاتين القضيتين وصدقتم بهما وجب أن تصدقوا أن اللغة لا تـكتسب بالقواعد فحسب ، بل بالتـكرار والحفظ والمحادثة ، وسأحاول ذلك فيما يأتى :

اللغة : أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . والتعبير باللغة والفهم عنها يقتضى أمرين :

١ — السرعة ؛ فكلما خطر بباله معنى خطر اللفظ الدال على مفرداته ، وخطر التركيب الدال عليه فى وعاء ، وكلما سمع جملة فهم معانى ألفاظها وما يدل عليه التركيب

٢ — الإجادة ؛ وذلك بأن يكون جارياً على قوانين هذه اللغة لا يخطىء فيها ، وذلك لا يكفى فيه أن تـكون اللغة معلومة فحسب ، بل لا بد أن تـكون ملـكة ، أى حالة راسخة فى النفس ، لأنها إذا كانت معلومة علماً ساذجا ولم تصر ملـكة ، وأراد المتكلم التعبير عن معنى ، فـكر وروى فى اللفظ الذى يدل على ذلك المعنى ، واستعرض الألفاظ المخزونة فى حافظته حتى يعثر به ، ثم فـكر فيما يعلمه من تراكيب هذه اللغة ليختار التركيب الذى يفيد ذلك المعنى ، ووضع اللفظ فى هذا التركيب ، وأعطاه الأحوال المناسبة ، وذلك يقتضى جهداً وزمناً ، وربما ينقضى بياض النهار وسواد الليل فى تعبيرين أو ثلاثة ، ما دامت اللغة علماً ساذجا . أما إذا عمقت إلى أن صارت ملـكة ، فانه إذا أراد التعبير عن معنى انثالت عليه الألفاظ ، وانثالت عليه التراكيب دون جهد ومشقة ، سريعاً لا يبطىء ، مصيباً لا يخطىء

وقياس ذلك قياس العامل الذى يصف الحروف للطبع ، فانه إذا كان مبتدئا واقتصر على العلم بأمكنة الحروف ، وأراد بعد هـذا العلم الساذج أن يصف حروف كلمة اقتضاه ذلك من

اللحظة من الصمت الرهيب ، يقبل رجل كافر لا دين له من أغنياء المدينة ، مختالاً فى ملابسه الزاهية ، حاملاً كيساً كبيراً فيه جواهره ونقوده ، حتى إذا وصل إلى حرم القديس ألقى حمله عند قدمي التمثال وسأله فى تأدب واحتشام أن يحرسه له حتى يثوب من سفره ... لكن لصوصاً يسرقون ثروة الرجل ... ويعود الـكافر فلا يجدها ... ويجن جنونه لهذا السبب ، ثم يتناول سوطاً فيلهب به كتفى القديس الذى ينزل من مقامه فى تؤدة ووقار على الرغم من السياط التى تمزق جلده ويذهب نحو اللصوص فيخاطبهم ويعظمهم وما يزال بهم حتى يردوا كيس الرجل ... ويعود القديس إلى مجلسه ويتربع عليه ، فيخر الـكافر نادماً ... ويؤمن من فوره .

(يتبع) ومبنى شبة

التفكير والجهد والزمن ما ليس بالقليل ، وربما انقضى اليوم ولم يصف إلا بضع كلمات

أما إذا تجاوز ذلك إلى أن صار ملكة ، فانك ترى يده تلقط الحروف من هنا ومن هنا ، وفكره يسبق يده ، ويده تسبق فكره ، حتى يصف في الدقيقة عدة كلمات

وهذا شأن الملكات كلها تأتي بالشيء في عجلة وإتقان ،

— وتريك العجب العجاب ، ترى الأمر الذي له أجزاء كثيرة ويحتاج إلى فكر في هذه الأجزاء يأتي به صاحب الملكة دون فكر كأنما هو ساحر يأتي بالخوارق

رآني صديق أمي ، كان قد بدأ في تعلم القراءة والكتابة أقرأ ، فهالته السرعة والإصابة ، فقال أتظنني أصدقك في أنك تقرأ من هذا الكتاب ؟ لا ، إنك تقرأ من حفظك . أتحسبون أنا حتى أصدق أنك تقرأ ما لا تحفظ ؟ أفي هذه السرعة تعلم ما هذا الحرف وما الذي يليه وهكذا وتعلم حالاته أمفتوح أم مضموم أم مكسور أم ساكن ، وإن تركيب ذلك يكون كذا ؟ وهبك

— عرفت هذه الكلمة فكيف تعرف صاحبتها بهذه السرعة ، وكيف تجمع من الحروف كلمات ومن الكلمات جملاً ، منطلقا كالسهم ، مصيباً كالقضاء ؟

وهذا تفكير سليم لو أغفلنا من حسابنا أمر الملكات ، ولكن الملكات كائنات من كائنات هذا الوجود ، ولها هذا الفعل الغريب ، والسحر العجيب . إن النجار الذي اكتسب ملكة النجارة يأتي بأعمال أشد إتقاناً وأسرع ممن لم يكتسب ملكة النجارة . إنه يدق المسمار بالقدوم مائة مرة ، فلا تخيب منها مرة ، حتى أن صاحبه ليمسك له المسمار وهو يدق آمناً أن تفلت منه ضربة فتصيب يده ، ومن لم تكن عنده ملكة

— النجارة يدق مائة مرة فلا تصيب رأس المسمار منها واحدة

وإن المرء ليعجب للحائك كيف يسلك الخيوط في الخيوط المشدودة بحركة سريعة وإتقان عجيب لا يدخل الخيط في غير موضعه المراد له ، ولا يعقد ولا يقطع . وإن الملكة لتدخل في أغلب أعمالنا فتجعلها أعظم إتقاناً وأسرع ، وتجعلنا نأتي من الأعمال ما نحتاج إلى آلاف السنين لنعمله لو لم تكن عندنا هذه الملكات . فبالملكة نكتب ونقرأ ونتكلم ونحسب ونعمل في الصناعات المختلفة من حياكة وخياطة ونجارة وحدادة وطباعة مع الإسراع والإجادة والإحسان

ولولا الملكات لما قمنا بهذه الأعمال وسواها إلا مع الخرق والإبطاء كما أريناك في صفاف الحروف الذي لم يكتسب ملكة في صنعته . وإن الزمان لأسرع من أن يدركنا ، وحاج الحياة شديدة الإلحاح تتطلب السرعة والإجادة ، وإن قوة المرء محدودة لا تفي للعمل بدون ملكة لأن ما كان من الأعمال كذلك يقتضي من المرء جهداً ومشقة وتفكيراً تستنفد من قوته ومن دمه وأعصابه ما هو بحاجة إليه

وإنها لحكمة من الله عظيمة أن يخلق فينا الملكات فتجعلنا نجيب مطالب الحياة المتعددة بأقل ما يكون من الزمن ، وأيسر ما يكون من الجهد ، وأسرع ما يكون من العمل ، لا سيما حاجة التخاطب . فالله أرحم بعباده من أن يقف التخاطب على هذه الجهود المضنية ، والمتاعب الشاقة ، والتخاطب عمل دائم ، لا تنقضي منه حاجة حتى تتجدد حاج ، ولا يفرغ المرء من خطاب حتى يستأنف خطاباً آخر ، ولا يفرغ من فهم خطاب إلا إلى فهم مخاطبات أخرى وهلم جرا ...

لقد قلنا الآن ما يمكن قوله في أن اللغات في الناس ملكات يقتدرون بها على الإفهام والفهم ، وأظن أن القراء آمنوا بذلك لما أوردته من الأدلة

وقد بقي أن أقول في القضية الأخرى وهي أن الملكة لا تكتسب بقواعد وإنما تكتسب بالمزاولة والتكرار

إذا استقريت الملكات ولاحظت كيف تتكون علمت أن الملكة لا تكتسب إلا بالدأب والمرانة وتكرار العمل لا بالقوانين والعلم المجرد . لاحظ صناعة صف حروف الطباعة تجد أن العامل إنما يكتسبها بمزاولة صف الحروف والتقاط الحرف من مكانه المخصص له وتكرار ذلك حتى تكتسب الملكة ، وليس يكسبها بالعلم المجرد بأن من أراد صف كلمة فليأخذ حروفها المتعددة من أماكنها المخصصة لها وهكذا فإذا أتم صفحة وضمها بين ضاغطين ليمنعاها من الشتات والانفراط

لاحظ صناعة الموسيقى تجدها لا تكتسب بقوانينها الفنية فحسب ، فلا تكتسب بقول الأستاذ اضرب بالخنصر والبنصر والسبابة وشد الأوتار ؛ إنه بذلك لا يكون عازفاً ولا موسيقياً إنما يكون موسيقياً إذا زاول هذا الضرب مراراً وتكراراً ، فأكسب أصابعه المرونة والسرعة والاستجابة لما رسمه في وحاه ، ثم أكسب نفسه وذوقه بذلك الملكة في الموسيقى وفنها الجميل